جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الهدن ومعاهدات الصلح بين لويس التاسع وحكام مصر أثناء الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٩-١٢٥٤م)

إعداد

أ.د/ عبدالغنى عبد الفتاح زهرة
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر
أ/ منيرة سعد الدويرم
محاضر بكلية العلوم والآداب بسراة عبيدة جامعة الملك خالد

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

–

الهدن ومعاهدات الصلح بين لويس التاسع وحكام مصر أثناء الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٩-١٢٥٤م)

عبد الغنى عبد الفتاح زهرة

قسم التاريخ والحضارة، كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، مصر

البريد الإلكتروني: Abdelghanzahra@azhar.edu.com

منيرة سعد الدويرم

كلية العلوم والآداب، بسراة عبيدة، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: moneradwerm@gmail.com

الملخص:

كانت العلاقات بين فرنسا وحكام مصر طوال الحروب الصليبية مابين حروب أحياناً وعلاقات سياسية أحياناً، وقد جمعت الحملة الصليبية السابعة بينهما معاً، فقد بدأت عسكرية رفض فيها قائدها الملك لويس التاسع أى حديث عن مفاوضات أو علاقات سلمية، حتى لو حقق من خلالها بعض الأهداف التى قدم من أجلها وخاصة السيطرة على بيت المقدس، إلا أنه بمرور الوقت اضطر لقبول ما كان يرفضه، وقامت بينه وبين حكام مصر من الأيوبيين والمماليك مفاوضات طويلة كانت بطلب منه أحياناً، ومن حكام مصر أحياناً، ووصلت العلاقة بينهما إلى محاولة التحالف مع المماليك سنة ١٢٥٢م، وهذا التباين هو ماكان يمثل العلاقات الفرنسية المصرية على مر العصور، وإن كان الذى يغلب عليها هى العلاقات السياسية والحضارية، وقد انتهت جميع الآمال والمآرب التى كان الملك لويس التاسع يطمع فى تحقيقها فى مصر والشام، والتى بدأت بحملة صليبية كبيرة، ودارت خلالها مفاوضات سياسية طويلة مع حكام مصر الأيوبيين والمماليك، ويكفينا ما ذكره رانسيمان للحكم على هذه الحملة حيث قال: " إن حملة القديس لويس الصليبية ورطت الشرق المسيحى فى كارثة عسكرية مروعة،

فعلى الرغم من إقامة الملك لويس فى عكا لمدة أربع سنوات، أسهمت كثيراً فى إصلاح الضرر، فإن ما حدث من خسارة فى القوة البشرية لم يجر مطلقاً استردادها، ومع أن الملك لويس فاق جميع المحاربين الصليبيين فيما حازه من أنبل الصفات والأخلاق، فلعله كان خيراً للشرق الفرنجى لو أنه لم يغادر فرنسا، لأن هزيمته كانت أعمق أثراً من أية هزيمة صليبية سابقة.

الكلمات المفتاحية: الحملة الصليبية السابعة، لويس التاسع، نجم الدين أيوب، شجرة الدر، توران شاه.

Truces and peace treaties between Louis IX and the rulers of Egypt during the Seventh Crusade (1249-1254 AD)

Abdul Ghani Abdel Fattah Zahra
Department of History and Civilization, Faculty of Arabic Language in Zagazig, Al-Azhar University, Egypt
Email: Abdelghanzahra@azhar.edu.com
Munira Saad Al-Duwairim
College of Arts and Sciences, Bisrat Ubaidah, King Khalid University, Saudi Arabia.
Email: moneradwerm@gmail.com

Abstract:
The relations between France and the rulers of Egypt throughout the Crusades were between wars at times and political relations at times, and the Seventh Crusade brought them together. The goals for which he presented, especially the control of Jerusalem, but over time he was forced to accept what he was rejecting, and long negotiations took place between him and the rulers of Egypt from the Ayyubids and the Mamluks, which were at his request sometimes, and from the rulers of Egypt sometimes, and the relationship between them reached an attempt to ally with the Mamluks a year 1252 AD, and this discrepancy is what represented the French-Egyptian relations throughout the ages, although what prevailed over them were the political and civilized relations, and all the hopes and aspirations that King Louis IX coveted to achieve in Egypt and the Levant, which began with a great crusade, ended during which negotiations took place. A long political campaign with the Ayyubid and Mamluk rulers of Egypt, and what Ranciman mentioned is sufficient for us to judge this campaign, where he said: "St. Louis's Crusade implicated the Christian East in a terrible military disaster. The loss of manpower that occurred was never recovered, and although King Louis surpassed all Crusader warriors in what he possessed of the noblest qualities and morals,

perhaps it would have been better for the Frankish East if he had not left France, because his defeat had a deeper impact than any previous Crusader defeat. .

Keywords: The Seventh Crusade, Louis IX, Najm al-Din Ayyub, Shajarat al-Durr, Turan Shah.

مقدمة:

تعد الحروب الصليبية من أهم الحروب التي ميزت علاقة الشرق الإسلامي بالغرب النصراني، وعلى الرغم من أن هذه العلاقة غلب عليها طابع القتال والحرب، إلا أنه كثيرا ما تخللها فترات هدن ومعاهدات صلح؛ ومن بين هذه الهدن والمعاهدات ما كان بين لويس التاسع وحكام مصر أثناء الحملة الصليبية السابعة.

ففي البداية كانت العلاقات بين فرنسا وحكام مصر علاقة قتال وحرب، فقد كان ملك فرنسا، الملك لويس التاسع، له أطماع استعمارية صليبية في الشرق، وخصوصا في مصر، حيث أراد ملك فرنسا لويس التاسع أن يستغل فرصة الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي من الشرق، فسعى أن يقوم هو باجتياح العالم الإسلامي من ناحية مصر والشام، مستغلا مرض الملك الصالح أيوب، ووقع اختياره على مدينة دمياط في مصر، ليبدأ منها حملته.

بالفعل استطاع لويس دخول دمياط، وتقدم نحو المنصورة، وهو تملؤه الحماسة للحرب والقتال، إلا أنه هزم هزيمة نكراء في المنصورة ثم في فارسكور، مما جعله يضطر إلى الصلح والمهادنة. بعد أن ساءت حالة الجيش الصليبي بعد هزيمته في المنصورة، وما تبعها من هزيمة في فارسكور، وأُسر لويس التاسع وحبسه لويس في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، ووقوع جيشه بالكامل ما بين قتيل وأسير، حتى قيل إنه: "أحصي عدة الأسرى فكانوا نيفًا وعشرين ألف آدمي والذي غرق وقتل سبعة آلاف نفس"(١)، عندئذ اضطر لويس للصلح، وقبول ما فرض عليه من شروط ليفتدي نفسه من الأسر، كان من بينها دفع فدية كبيرة،

(١): ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مج٦، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بدون تاريخ، ص٣٦٥.

وإطلاق سراح الأسرى المسلمين، وتسليم مدينة دمياط للمسلمين، على أن كون الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات. وبالفعل تم الصلح على ذلك، وقد ذكر ابن تغري بردي ذلك بقوله: " اتّفقوا على أن يسلّم الفرنسيس دمياط، وأن يعطى هو والكنود ثمانمائة ألف دينار عوضا عما كان بدمياط من الحواصل، ويطلقوا أسرى المسلمين، فحلفوا على هذا"(١).

وعلى هذا قامت بين لويس التاسع وبين حكام مصر من الأيوبيين والمماليك من بعدهم مفاوضات طويلة كان بعضها بطلب منه أحياناً، بعدما كان هو من يتوق إلى الحرب، حتى وصل به الأمر إلى محاولة التحالف مع المماليك سنة ١٢٥٢م، وعلى هذا برزت العلاقات السياسية والحضارية بين الطرفين، "وأخذ المسلمون والنصارى يعرف كل منهم الآخر ويعرفون كيف يحترم بعضهم بعضاً، وعقدت بينهم المعاهدات والصلات خلال المهادنات والانقطاع عن استعمال السلاح"(٢).

محاور البحث:

ولمعالجة هذا الموضوع قُسم إلى ثلاثة محاور هي كالآتي:

١- تمهيد.

٢- المفاوضات بين لويس التاسع والصالح نجم الدين أيوب.

٣- الصلح بين توران شاه ولويس التاسع سنة ١٢٥٠م.

٤- محاولة التحالف بين المماليك ولويس التاسع سنة ١٢٥٢م.

---

(١): ابن تغري بردي : **النجوم الزاهرة**، مج٦، ص٣٦٥.

(٢): كرد: محمد علي: **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م ،ج٢، ص١٢٧.

تمهيد:

اتسمت العلاقات المصرية الفرنسية على مر العصور بالتباين مابين علاقات سلمية تأخذ طابعاً سياسياً أو اقتصادياً، أو علاقات عسكرية تأخذ شكل حملات عسكرية، وقد شهدت فترة الحروب الصليبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين صوراً للعلاقات السلمية والعسكرية.

ورغم أن هذه العلاقة بدأت عسكرية، وكان الفرسان الفرنسيون فى طليعة القوات المشاركة فى هذه الحروب وعلى رأسهم جودفرى دى بويون أول حكام دولة بيت المقدس الصليبية، وأول من فكر فى الاستيلاء على مصر، وأخوه بلدوين الأول الذى قام بالعديد من المعارك ضد الدولة الفاطمية، وتوفى أثناء عودته من حملة قام بها على مصر، ووصل فيها بقواته إلى مدينة تنيس على بحيرة المنزلة، واضطر للعودة بسبب مرضه، وتوفى قبل وصوله إلى العريش[١].

إلا أنه بمرور الوقت بدأت تظهر بين الطرفين علاقات سياسية بدأت بالتفاوض بينهما لعقد هدنة لظروف الطرفين العسكرية، ثم وصلت العلاقة إلى تحالف أحياناً كما حدث بين الوزير الفاطمى شاور والملك عمورى ملك بيت المقدس سنة ١١٦٧م[٢].

وظلت العلاقات بين الطرفين طوال الحروب الصليبية على هذا الأمر مابين حروب أحياناً وعلاقات سياسية أحياناً، وقد جمعت الحملة الصليبية السابعة بينهما معاً، فقد بدأت عسكرية رفض فيها قائدها الملك لويس التاسع أى حديث عن مفاوضات أو علاقات سلمية، حتى لو حقق من خلالها بعض

١- د/ أحمد الشامى- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (دار النهضة العربية سنة ١٩٨٥م) ص٩٥ وما بعدها.

٢- د/ عبدالغنى زهرة- الهدن والمفاسخات بين المسلمين والصليبيين- دراسة فى كيفية تحقيق النصر السياسى (مكتبة الرشد بالرياض سنة ٢٠٠٦م) ص٧١.

الأهداف التى قدم من أجلها وخاصة السيطرة على بيت المقدس، إلا أنه بمرور الوقت اضطر لقبول ما كان يرفضه، ووافق على هدنة، ثم قامت بينه وبين حكام مصر من الأيوبيين والمماليك مفاوضات طويلة كانت بطلب منه أحياناً، ومن حكام مصر أحياناً، ووصلت العلاقة بينهما إلى محاولة التحالف مع المماليك سنة ١٢٥٢م، وهذا التباين هو ماكان يمثل العلاقات الفرنسية المصرية على مر العصور، وإن كان الذى يغلب عليها هى العلاقات السياسية والحضارية.

المفاوضات بين لويس التاسع والصالح نجم الدين أيوب

بعد استرداد المسلمين لبيت المقدس سنة ١٢٤٤م[١] استغاث الصليبيون في الشرق على لسان جاليران أسقف بيروت نيابة عن بطريرك بيت المقدس بأوربا لإرسال إمدادات لهم، حتى لا تتعرض مملكة بيت المقدس بأسرها للفناء، فاستجاب لهذه الدعوة لويس التاسع ملك فرنسا[٢]، الذى كان حريصاً منذ بداية حكمه على خدمة الوجود الصليبى بالشرق سواء بالحرب، أو بالدعم المالى والعمرانى من أجل تحقيق الاستمرار للممالك الصليبية فى الشرق، أو كسب

١ – كان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ١٢٢٩م، عندما تنازل لهم عنها الملك الكامل الأيوبى فى صلح يافا، وعندما استعان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزميين ضد الصالح إسماعيل حاكم دمشق الذى تحالف مع الصليبيين للهجوم على مصر، قام الخوارزميون بالسيطرة على بيت المقدس أثناء توجههم إلى مصر للانضمام إلى جيش الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٤م. ابن واصل– مفرج الكروب– (القاهرة ١٩٨٦م) ج٥ ص٢٢٣.

٢– تولى لويس التاسع حكم فرنسا بعد وفاة أبيه لويس الثامن سنة ١٢٢٦م، وكانت أمه بلانش القشتالية وصية عليه لأنه كان طفلاً لم يتعدى الثانية عشرة من عمره، واستمرت وصية عليه حتى سنة ١٢٣٤م، واستمر فى حكم فرنسا حتى وفاته سنة ١٢٧٠م. د/ حياة ناصر الحجى– السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع–(مكتبة النهضة العربية سنة ١٩٨٣م)– ص١٢.

الحلفاء والأصدقاء بواسطة المراسلات الدبلوماسية مع المغول للوصول إلى تحالف حربى معهم لضرب القوى الإسلامية، أو التعاون مع الطوائف المحلية المخالفة فى المذهب مثل الحشيشية (الإسماعيلية)، أو إنهاء الخلافات القائمة بين الجماعات الصليبية فى الشام، مع إدراكه السياسى الواضح بأن مصر هى مفتاح النصر[١].

وساعده البابا أنوسنت الرابع بإرسال مندوبين عنه لدعوة الناس للمشاركة في الحملة الصليبية، وأصدر عدة مراسيم لحث الناس على الاشتراك فى حملة صليبية من أجل إستعادة بيت المقدس.

وبعد إعداد الحملة غادر الملك لويس التاسع فرنسا في أغسطس ١٢٤٨م، ووصل إلى قبرص في سبتمبر سنة ١٢٤٨م، وعندما عزم لويس التاسع على البدء في الأعمال العسكرية، نصحه مقدمي الاسبتارية والداوية بالانتظار حتى تنتهي العواصف الشتوية، فمكث لويس في قبرص ثمانية شهور[٢].

وفي هذه الأثناء داخل الداوية في مفاوضات مع السلطان الصالح أيوب مستغلين قيام صراع بينه وبين الناصر يوسف أمير حلب، واقترحوا على الصالح أيوب أنه إذا تنازل لهم عن بعض البلاد في الشام فإنهم سيقدمون له المساعدة ضد غريمه حاكم حلب، ولم يكتف الداوية بذلك وإنما طلبوا من الملك لويس التاسع أن يتدخل هو الآخر في النزاع بين الأيوبيين، فربما حصل على بيت المقدس دون قتال، ولكن لويس التاسع لم يقبل التدخل بين الأمراء الأيوبيين، أو

١- كان لويس التاسع يرى حينذاك أن الطريق السليم للحصول على بيت المقدس هو البدء بغزو مصر، وأن مفتاح المدينة المقدسة موجود فى القاهرة، ولا فائدة من أن يقوم الصليبيون بالاستيلاء على بيت المقدس ثم تخرج الجيوش الأيوبية من مصر لهدم البناء الصليبى بالشام.

٢- د/ محمود عمران- تاريخ الحروب الصليبية (الإسكندرية ١٩٩٥م) ص٣٠٨.

النزول إلى مستوى الدبلوماسية والمفاوضة معهم، لاعتقاده أن المسألة الصليبية لاتحسمها المفاوضات والاتفاق الودى والهدنة، بل السيف والنار ولذلك رفض اقتراح الداوية قائلاً لهم: إنه لم يقدم إلا لقتال المسلمين لا للانغماس في المفاوضات، وأمرهم بقطع المفاوضات مع السلطان الصالح أيوب، وإغلاق هذا الباب الذى لاينبغى لملك فرنسى قديس أن يقترب منه مهما كانت الفائدة من ورائه[١].

وفي يونية ١٢٤٩م وصلت الحملة الصليبية إلى دمياط، وعسكرت على الساحل الغربى لنهر النيل، وأرسل الملك لويس إلى السلطان يحمل تهديداً ووعيداً ويطالبه بالتسليم ومما جاء فيه:" **أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتلك في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي، فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة علي، فيدك العليا ممتدة إلي. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا.**

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرئ عليه، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع. فكتب الجواب بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب

١- رانسيمان – تاريخ الحروب الصليبية – ترجمة د/ السيد الباز العرينى (بيروت سنة ١٩٨٣م) ج٣ ص٤٤٥، د/أحمد الشامى- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى- ص٩٥.

الإنشاء، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين: **أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك – أيها المغرور – حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وأخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا و آخره عليك. فهنالك تسيء بك الظنون، " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ". فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " ، وكن على آخر سورة ص: " ولتعلمن نبأه بعد حين " ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين"، وإلى قول الحكماء: إن الباغي له مصرع وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك، والسلام**[١].

وسيطرت القوات الصليبية علي دمياط في سهولة بالغة بعد فرار الحامية المدافعة عنها، بل وفرار أهلها أيضاً خوفاً من بطش الصليبيين[٢].

ومكث لويس التاسع ما يقرب من خمسة أشهر في دمياط منتظراً انحسار مياه الفيضان، وقدوم إمدادات إليه بقيادة أخيه الفونس دي بواتييه، مما أعطى المسلمين فرصة طيبة للاستعداد، وأقام الصالح أيوب معسكره عند المنصورة.

وقد لجأ الصالح أيوب إلى اقتفاء آثار أبيه الكامل عندما واجه نفس

١ – المقريزى – السلوك– ج١ ص٣٣٣، وقد وردت هذه الرسائل بصيغة أخرى ولكنها تحمل نفس المعنى عند ابن أيبك– كنز الدرر وجامع الغرر (مطبعة الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٧٢م) ج٧ ص٣٦٧، د/على محمد الصلابى– الأيوبيون بعد صلاح الدين– ص٣٤٤.

٢– المقريزي – السلوك– ج١ ص٣٣٦.

الموقف منذ ثلاثين عاماً، وقرر فتح باب المفاوضات مع الملك لويس التاسع، فأرسل إليه يعرض عليه الجلاء عن دمياط مقابل التنازل للصليبيين عن بيت المقدس، ولكن لويس التاسع رفض هذا العرض مغتراً بقوته، وظناً منه أنه بعد أن يسيطر على مصر سيتمكن من دخول بيت المقدس بسهولة، كما حدث في دمياط، كما كان يرفض حينئذ التعامل والتفاوض مع أي مسلم(١).

وفى رواية أخرى أن اقتراحات السلطان الصالح للهدنة لقيت شيئاً من القبول لدى القادة الصليبيين والملك لويس التاسع نفسه، ما عدا كونت أرتوا أخى الملك الذى رأى أنه لا ينبغى للصليبيين أن يشتروا السلام بالتخلى عن واجب الحرب المقدسة ضد المسلمين، إلا إذا عرض السلطان تعويضاً عن دمياط بالاسكندرية، مضافاً إلى شرط استرجاع مدينة بيت المقدس، ولذلك فشلت المفاوضات(٢).

واستعد الصليبيون للخطوة العسكرية القادمة وهي الزحف جنوباً صوب القاهرة، وبدأ زحفهم في نوفمبر سنة ١٢٤٩م في نفس الوقت الذي توفي فيه السلطان الصالح أيوب بعد معاناة طويلة مع المرض(٣)، وقد أخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته، وأرسلت تستدعى ابنه توران شاه من ديار بكر، حيث كان نائباً عن أبيه فيها، وظلت تدبر الأمور بمساعدة الطواشي جمال الدين محسن،

١- رانسيمان – تاريخ الحروب الصليبية- ج٣، ص٤٥٤.

٢- د/ محمد مصطفى زيادة- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب سنة ١٩٦١م) ص١١٨.

٣ – عاني الصالح أيوب من المرض شهوراً طويلة بحيث لا يقوى على النهوض من الفراش، وكان يحمل في محفة إلى قلعة المنصورة، وينظم وهو عليها شئون الدفاع وتنظيم الجند حتى توفي سنة ٦٤٧هـ. أبو المحاسن – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب) ج٦ ص٣٢٨.

والأمير فخر الدين بن الشيخ، بينما وصلت القوات الصليبية إلى رأس جزيرة دمياط في مقابلة المنصورة، ويفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم[١].

وقد عبرت مقدمة الصليبيين بقيادة روبرت دى أرتوا شقيق الملك بحر أشموم عن طريق مخاضة سلمون، التى دلهم عليها أحد الأقباط من أهل سلمون، وهجمت على المعسكر الإسلامي دون انتظار بقية الجيش الصليبي، فانتصرت على المسلمين، وقتل الأمير فخر الدين قائد الجيش، وتراجع المسلمون إلى مدينة المنصورة، وهنا ارتكب روبرت حماقة كبرى حينما قرر اقتحام المنصورة دون انتظار عبور بقية الجيش الصليبي، رغم أنه تلقى أوامر صارمة من شقيقه الملك لويس بألا يهاجم المصريين إلا بعد أن يأذن له الملك، ولكنه تجاهل هذه الأوامر، وهاجم مدينة المنصورة، فتصدى له المماليك البحرية وانقضوا على الصليبيين، وقتلوا منهم عدداً كبيراً على رأسهم روبرت دي أرتوا القائد الصليبي[٢].

وقد جزع لويس التاسع عندما علم بهذه الكارثة، ولكنه تمالك نفسه، ونظم جيشه، وصمد أمام الهجوم الإسلامي، حتى اضطر المسلمون إلى التراجع في المساء إلى مدينة المنصورة، ولكن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً في سرعة واضحة بسبب قلة المؤن، وفقدهم عدد كبير من الفرسان في معركة المنصورة، وانتشار الأمراض والأوبئة في المعسكر الصليبي، ثم ارتفاع الروح المعنوية للمسلمين لوصول توران شاه في أواخر فبراير سنة ١٢٥٠م، لذلك فكر لويس التاسع في العودة إلى دمياط للتحصن بها، ولكن توران شاه قطع طريق المواصلات بين المعسكر الصليبي ودمياط بأسطول إسلامي كبير، كان يهاجم

١ – المقريزي – السلوك– ج١ ص٣٣٧.

٢ – المقريزي –السلوك– ج١ ص٣٥١، محمد العروسى المطوى– الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب (دار الغرب الإسلامى سنة ١٩٨٢م) ص١٢٠.

السفن الصليبية ويسيطر عليها[١].

الصلح بين توران شاه ولويس التاسع سنة ١٢٥٠م

أدرك لويس التاسع أنه لابد أن يبذل كل ما في وسعه ليخلص الجيش الصليبي من قبضة المسلمين، ولكن عملية الانسحاب إلى دمياط لم تكن سهلة لأنهم سيتعرضون لمطاردة قاسية من المسلمين، ولذلك لجأ لويس إلى فتح باب المفاوضات وطلب المهادنة مع السلطان توران شاه[٢]، – وهو الذي كان يرفض مسبقاً أي مفاوضات مع مسلم –، وتكون الوفد الصليبى برئاسة كونت فيليب مونتفرت، وهو أمير صور وزعيم البارونات الصليبيين المحليين، ومن أقرب المقربين إلى الملك لويس، ومعه الفارس جيوفرى دى سارجين، وهو من أخص رجال الحاشية الملكية، واتجهوا إلى مدينة المنصورة فى أواخر شهر ذى الحجة سنة ٦٣٧هـ (أواخر مارس سنة ١٢٥٠م) للاجتماع مع الوفد الأيوبى المفوض من قبل السلطان توران شاه، وكان برئاسة زين الدين قراجا وبصحبته القاضى بدر الدين السنجارى من كبار أهل الرأى والمشورة فى الدولة، للوصول إلى اتفاق، وتم ذلك الاجتماع بعد وقت قليل[٣].

وكانت الشروط المقترحة من قبل الوفد الصليبى تتضمن مايلى: أن يقوم الملك لويس التاسع بتسليم دمياط للمسلمين، وأن يقوم هو بالمقابل بتسليم بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى فلسطين للصليبيين، وأن يقوم السلطان برعاية المرضى الصليبيين فى دمياط، وأن يحفظ اللحوم المملحة فى المخازن من

١ – يذكر المقريزي أنهم سيطروا على ما يقرب من ثمانين سفينة، ويوافقه في العدد رانسيمان– تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٤٦٣.

٢ – العينى – عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م)– ج١ ص٣.

٣– د/ محمد مصطفى زيادة– حملة لويس التاسع على مصر– ص١٨٤.

أجلنا- بما أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير-، وأن يحتفظ السلطان بالآلات المملوكة للجيش الصليبى حتى يحين الوقت الذى يكون فيه الملك لويس قادراً على إرسال من يحملها إليه[١]. ولعل هذا هو نفس العرض الذي رفضه لويس في أول الأمر من السلطان الصالح أيوب.

ومن الواضح أن لويس أراد بهذا العرض أن يستفيد عدة فوائد أهمها: أن يسترد بيت المقدس في الوقت الذي يشعر فيه بعجزه عن الاحتفاظ بدمياط، ثم يضمن لنفسه ولجيشه انسحاباً آمناً سليماً من مصر دون أن يتعرض لمطاردة المسلمين وأذاهم[٢].

غير أن الوفد الأيوبى كان عليماً بالحال فى المعسكر الصليبى، ولا سيما حال المؤن والإمدادات الغذائية، بعد أن استولت البحرية المصرية على العديد من السفن الصليبية التى كانت تحمل المؤن من دمياط إلى الصليبيين، وأصبحت تسيطر سيطرة تامة على الطريق النهرى بين دمياط والمنصورة، ولذا لم يجد المفاوضون المصريون الأيوبيون مسوغاً أو داعياً لقبول هذه الشروط التى اقترحها الوفد الصليبى، وتم رفضها، وبذلك فشلت المفاوضات[٣].

ولكن جوانفيل المؤرخ المصاحب للحملة الفرنسية يروى رواية أخرى فيقول إن العرض الصليبى لقى قبولاً عند الوفد الأيوبى، وانتقل الحديث بعد ذلك عن الرهائن المعتادة للتبادل بين الطرفين، وعندما استفسر الوفد الأيوبى من الوفد الصليبي عن الضمانات التى سيعطيها الصليبيون للمسلمين ضماناً لإعادة

١- جوانفيل – حياة القديس لويس- ترجمة د. سهيل زكار ضمن الموسوعة الشامية (دمشق سنة ١٩٩٩م) ص١١٦، أبوالفدا – المختصر فى أخبار البشر- (القاهرة ١٣٣٥هـ) ج٣ ص١٨٠.

٢ – د/ سعيد عاشور – الحركة الصليبية (مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤م) ج٢ ص٨٤٧.

٣- د/ محمد مصطفى زيادة- حملة لويس التاسع على مصر- ص١٨٥.

دمياط إلى سلطانهم، عرض عليهم الصليبيون الاحتفاظ بواحد من أخوى الملك لويس الموجودين معه فى الحملة وهما كونت دى أنجوا، أو كونت دى بواتييه، بمثابة رهينة حتى توضع دمياط بين يدى السلطان، ولكن السلطان توران شاه الذى علم كيف أضحى مركز الملك لويس بالغ الحرج، أرسل إلى الوفد المفاوض يطلب منه بألا يعقد أى معاهدة مع الصليبيين مالم يكن الملك لويس نفسه رهينة عند المسلمين، وأن يكون أحد أعضاء الوفد الأيوبى هو الرهينة المصرية الموازية للملك.

وغضب عضو الوفد الصليبى جيوفرى دى سارجين من هذا الاستخفاف بذات الملك لويس وأبدى دهشته من هذا الطلب، وقال بأنه يفضل أن يقتلهم المسلون جميعاً، أو يأخذوهم أسرى على تحمل مسبة ترك الملك رهينة بين أيديهم[١].

وكان هذا المطلب يعنى ضمناً رفض عرض الملك لويس بشكل غير مباشر، وهو ما أشارت إليه المصادر العربية دون ذكر تفاصيل المفاوضات، وبذلك اتفقت المصادر العربية والأجنبية على فشل هذه الجولة من المفاوضات.

وقد دعا الملك لويس قادته للاجتماع به لمناقشة أمر الارتداد إلى دمياط، بعد أن انتشرت الأمراض والأوبئة بين صفوف الجيش الصليبى بدرجة خطيرة، وتقرر أن يبدأ ذلك صباح الخامس عشر من إبريل سنة ١٢٥٠م، وقام المسلمون بمطاردة الصليبيين أثناء الانسحاب، وكان الملك لويس مريضاً لايستطيع الحركة، فقام أحد فرسانه بنقله إلى مكان أمين بقرية ميت الخولى عبدالله الحالية، وتكفلت فرنسية نبيلة بتمريضه، ولم تنقطع المفاوضات بين الطرفين حينذاك، وكان البارونات المحليون هم الذين يحرصون على استمرارها، وتولى أمر

١ – جوانفيل– حياة القديس لويس– ص١١٧، المطوى– الحروب الصليبية– ص١٢٠.

المفاوضات من الجانب الصليبي كما كان فى الجولة السابقة فيليب مونتفورت صاحب صور الذى اتصل برئيس الوفد الأيوبى، وأحس منه استعداداً طيباً لاستئناف المفاوضات على شروط يقبلها السلطان توران شاه.

وعندما توجه فيليب لإخبار الملك لويس بشأن تجديد المفاوضات مع المسلمين، وأن شروط الهدنة ستكون بلا شك مرضية للمسلمين، وافق الملك لويس، بل وتوسل إليه أن يسرع فى إنجاز مهمته وعقد الهدنة، وقبول الشروط التى يعرضها عليه المفاوض الأيوبى كيفما تكون، بل وأعلن راضياً بأن يكون هو لا غيره رهينة لدى السلطان توران شاه[١].

وأسرع الكونت فيليب إلى المفاوض الأيوبى لإتمام الهدنة معه، واتفقا مبدئياً على هدنة أهم شروطها جلاء الصليبيين عن دمياط دون قيد أو شرط، ولكن قبل الاتفاق النهائى على شروط الهدنة حدث حادث أدى إلى اختلال الأمور فى الجانب الصليبى وتوقف المفاوضات، وهو أنه عندما رأى أحد الفرسان الصليبيين توسل الملك لويس من أجل الهدنة، نادى فى الجيش الصليبى يطالبهم بالاستسلام، وأن الملك أصدر أوامره بالتسليم العام للقوات الأيوبية، وربما كان ذلك بإيحاء من البارونات الصليبيين المحليين الذين تملكهم اليأس، ولم يروا فى استمرار المقاومة أية جدوى، أو أنه نادى بهذا النداء بعد أن اقتنع مع أمثاله من الفرسان الفرنسيين بأن التسليم الصليبى آت لاريب فيه، وبالفعل استسلم عدد كبير من الفرسان الصليبيين بكامل أسلحتهم إلى القوات الأيوبية قبل عقد أى هدنة[٢].

وبينما كان فيليب يحاول إقناع قادة المسلمين بأن يسمحوا بجلاء

١- د/ محمد مصطفى زيادة- حملة لويس التاسع على مصر- ص١٩٦.

٢ - د/جوزيف نسيم يوسف- العدوان الصليبى على بلاد الشام (دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧١م) ص٨٣.

الصليبيين عن مصر في أمان مقابل تسليم دمياط، كان الجيش الإسلامي يحاصر ما تبقى من الصليبيين عند فارسكور –بالقرب من دمياط– وشنوا عليه هجوماً، وقع فيه الجيش الصليبي بين قتيل وأسير، وكان على رأس الأسرى الملك لويس التاسع نفسه(١).

وتم سجن الملك لويس التاسع في دار ابن لقمان بالمنصورة، وعهد إلى الطواشي صبيح المعظمى بحراسته، وخصص له من يقوم بخدمته، بينما جرى سجن البارونات والقادة –وكان عددهم كبيراً– فى دهليز (صوان) آخر، حتى يتضح موقف السلطان منهم(٢).

وبعد بضعة أيام تم فتح باب المفاوضات بين توران شاه ولويس التاسع مرة أخرى، ويلاحظ أن هذه أول مرة خلال الحروب الصليبية تجرى فيها مفاوضات صلح في مثل هذه الظروف، ولأول وهلة قد يظن الإنسان أن الملك لويس التاسع بوجوده في سجن توران شاه سوف يوقع على كل شروط توران شاه دون قيد أو شرط، ولعل هذا ما توقعه أيضاً توران شاه، ولذلك لم يبادر بعد انتصاره في فارسكور إلى السيطرة على دمياط، إذ اعتقد أن استردادها صار أمراً مفروغاً منه، وإنما أخذ يخطط للاستيلاء على جميع الممتلكات الصليبية بالشام، ولذلك عندما بدأت المفاوضات بين الطرفين كان أول طلب لتوران شاه كلف به الوفد الأيوبى المفاوض من الملك لويس أن يسلم القلاع الصليبية في الشام للمسلمين،

١– ابن العماد الحنبلي – شذرات الذهب في أخبار من ذهب (دار الفكر ١٩٧٩م) – جـ ٥ ص٢٣٩، الحريري– الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين علي بلاد المسلمين (دمشق ١٩٨١م) ص٩٧.

٢ – د/ عبدالرحمن زكى – الجيش المصرى فى العصر الإسلامى (مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٠م) ص٢٣٢، د/جوزيف نسيم يوسف– العدوان الصليبى على بلاد الشام – ص٨٣.

ولكن لويس اعتذر عن تنفيذ هذا الشرط، لأنه لا يستطع التنازل عن أرض ليست ملكاً له، لأن هذه البلاد إنما تتبع الملك كونراد ابن الإمبراطور فردريك الثاني، وما من أحد سوى الإمبراطور يستطيع أن يتخلى عنها، وحاول توران شاه تهديد الملك لويس لانتزاع ذلك التنازل منه، ولكن لويس أصر على رأيه، وقال إنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يريدون(١).

وفى نفس الوقت أرسل السلطان توران شاه وفداً للتفاوض مع البارونات والقادة فى معسكرهم، ليظفر منهم بأقصى استفادة وربما يحصل منهم على هذا التنازل عن بعض القلاع الصليبية، وتولى التفاوض باسم البارونات الصليبيين الكونت بيير دى بريتانى، وسأله الوفد الأيوبى بأن السلطان بعثنا إليكم لنسأل فيما إذا كنتم ترغبون فى إطلاق سراحكم؟، فأجاب الكونت بالتأكيد على الرغبة فى ذلك، فسألوه بعد ذلك: ما الذى تعطونه إلى السلطان مقابل الحصول على حريتكم؟، فأجابهم الكونت بقوله: كل ما نستطيعه، مادام الأمر فى حدود المعقول، فقالوا هل ستعطوننا أياً من القلاع العائدة لبارونات الشام؟، فأجابهم الكونت بأنهم لايملكون القدرة على تسليم أياً من هذه القلاع، لأنها ممنوحة من قبل الإمبراطور الحاكم فى ألمانيا، ونلاحظ أنها نفس إجابة الملك لويس، ثم سأله الوفد عما إذا كانوا على استعداد أن يسلموا مقابل الحصول على حريتهم أياً من القلاع العائدة إلى الداوية أو الاسبتارية، فأجاب الكونت بأن هذا من غير الممكن القيام به، لأن حاميات هذه القلاع أقسموا- لدى تسلمهم لمواقعهم- على الأناجيل المقدسة أنهم لن يسلموا أياً من هذه القلاع مقابل الحصول على حرية أى إنسان أو إطلاق سراحه من الأسر، فقال لهم الوفد الأيوبى: يبدو لنا أنكم ليست لديكم

١ - د/ سعيد عاشور - الحركة الصليبية - جـ٢ ص٨٤٩.

رغبة فى إطلاق سراحكم، ثم عاد الوفد إلى السلطان مرة أخرى[١].

وعادت المفاوضات بين السلطان توران شاه والملك لويس مرة أخرى، وبعد محاولات متكررة للحصول على تنازل الملك عن بعض قلاع الشام، أصر الملك على رفضه، فتنازل السلطان عن هذا الشرط ووضع شروطاً أخرى للصلح تتضمن : أن يسلم الملك الفرنسي مدينة دمياط فدية عن نفسه، وأن يدفع مبلغ ثمانمائة آلاف بيزنتة فدية لأسرى الصليبيين[٢]، وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين في حوزته، وأسرى المسلمين في الشام منذ الهدنة التي عقدت بين الإمبراطور فردريك والملك الكامل سنة ١٢٢٩م (صلح يافا)، وأن يعمل الصليبيون على حفظ الأمن والاستقرار في جميع البلاد التي تحت أيديهم في بلاد الشام، وأن يطلق المسلمون أسرى الصليبيين الذين وقعوا في أيديهم منذ وصول الحملة، وكذلك الأسرى منذ صلح يافا، وأن يقوم السلطان بحماية العتاد الحربي الذي يتواجد في دمياط بعد رحيل الحملة، حتى تسنح فرصة لنقله خارج

---

١ – جوانفيل– حياة القديس لويس– ص١٢٨.

٢– باركر – الحروب الصليبية – ترجمة الدكتور السيد الباز العريني (دار النهضة العربية – ١٩٦٧م) ص١٢٢، ويذكر رانسيمان أن الفدية كانت مليون بيزنتة. تاريخ الحروب الصليبية– ج ٣ ص٤٦٧، لكنه يذكر بعد ذلك في موضع آخر أن الملك دفع نصف الفدية وقدرها أربعمائة ألف. تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص٤١٧، وكلا الرقمين صحيح، فبعد أن وافق لويس على مليون بيزنتة– أى ما يعادل خمسمائة ألف ليرة ذهبية فرنسية– وقال إنه سيدفعه عن طيب خاطر لإطلاق سراح أتباعه، وسوف يسلم دمياط لإطلاق سراح نفسه، لأنه من غير اللائق بالنسبة لإنسان من مثل مقامه العالى الإقدام على شراء حريته بالمال، وعندما نقل الوفد الأيوبى المفاوض هذا الكلام للسلطان تعجب وقال: "إن هذا الفرنجى رجل كريم الطباع، لأنه لم يساوم على دفع مبلغ كبير كهذا، ولهذا اذهبوا وأخبروه بأننى قد أعفيته من دفع مبلغ مائة ألف ليرة ذهبية من مبلغ الفدية". جوانفيل– حياة القديس لويس– ص١٣١.

مصر، وأن يمنح الأمان لمن يبقى من الصليبيين في دمياط حتى رحيلهم، وأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات[١].

ووافق الملك لويس على هذه الشروط، وبعد أن أقسم الطرفان على احترام شروط الصلح، وتم التوقيع عليه من الجانبين، انتقل السلطان توران شاه بعد ذلك من المنصورة إلى فارسكور، لانتظار الخطوة التالية بشأن الفدية والهدنة والتسليم الصليبى العام، وأثناء ذلك وصلت إليه رسالة من الملك لويس يطلب فيها الإذن لعدد من كبار الأسرى الصليبيين، من بينهم المؤرخ جوانفيل، للذهاب فى أربع سفن مصرية إلى دمياط لإذاعة شروط الهدنة وتفاصيلها، والتسليم وتاريخه، ولإحاطة الملكة مارجريت برغبات زوجها الملك لويس بشأن جمع مال الفدية، وهنا قرر الملك لويس أن ينزل عما تبقى من كبريائه الدينى العسكرى القديم، إذ وافق فى رسالته هذه على الذهاب إلى فارسكور، ليكون رهينة عند السلطان حتى يتم تسليم دمياط، وبالفعل انتقل الملك لويس إلى فارسكور، ومن فارسكور تم نقل لويس ومن معه من الأسرى على السفن إلى دمياط، ورسا الجميع بالقرب من الشاطئ في إبريل سنة ١٢٥٠م[٢].

ولكن هذا الاتفاق لم يتم لمصرع السلطان توران شاه في صفر سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م على يد المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقداري، وقلدوا السلطانة شجرة الدر زوجة السلطان الصالح أيوب، وتم فتح باب المفاوضات مرة أخرى مع الملك لويس التاسع رغبة من المماليك في الحصول على أموال أكثر، وقد ناب عن المماليك في المفاوضات حسام الدين بن أبي علي الهذياني، وناب عن الصليبيين بلدوين الثاني دي أبلين، وجاي دي أبلين، وفي هذه المفاوضات وافق المماليك على معظم الشروط السابقة التى أقرت أيام توران شاه وأهمها:

١- د/ محمود عمران – تاريخ الحروب الصليبية ص٣١٤.

٢- د/ محمد مصطفى زيادة- حملة لويس التاسع على مصر- ص٢٠٧.

أولاً إطلاق سراح الملك لويس مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط[١]. **ثانياً**: أن يدفع الملك لويس مال الفدية المقررة عن أخويه وكبار الأسرى من البارونات، وقدره أربعمائة ألف ليرة ذهبية، يتم دفع النصف الأول منها معجلاً قبل الرحيل عن الشواطئ المصرية، ويكون دفع النصف الثانى منها بعد وصول الملك لويس إلى عكا. **ثالثاً**: أن يطلق أمراء المماليك البحرية الصالحية سراح الملك لويس وأخويه، وكذلك كبار الأسرى من البارونات الصليبيين مباشرة وفى آن واحد بعد تنفيذ الشرطين السابقين. **رابعاً**: أن يقوم الملك لويس بفك أسر من لديهم من المسلمين الذى وقعوا فى أيدى الصليبيين منذ انقضاء أجل صلح يافا بين السلطان الكامل والملك فردريك الثانى. **خامساً**: أن يعمل الملك لويس على إقرار السلام فى المدن التى لم يزل الصليبيون يحتلونها فى فلسطين. كما اشترطوا على الملك لويس ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى، أما بقية أسرى الصليبيين فقد تم الاتفاق على إطلاق سراحهم أيضاً بعد دفع الفدية كاملة وهى أربعمائة ألف ليرة ذهبية، سيدفع نصفها في دمياط، ويؤدي النصف الآخر عند وصول الملك لويس إلى عكا –كما ذكرنا–[٢].

١– عندما أسر الملك لويس أراد البحارة الإيطاليون تسليم دمياط والجلاء عنها، ولكن الملكة مارجريت زوجة الملك– وكانت فى دمياط تضع مولوداً لها– توسلت إلى زعمائهم بالبقاء فيها، لأنها كانت تدرك أن دمياط هى الورقة الأخيرة فى يدها التى تساوم عليها لإطلاق سراح الملك، وقامت بشراء كل مافى المدينة من مؤن، وتوزيعها عليهم حتى وافقوا على البقاء فيها، وتحقق بعد نظر الملكة بعد ذلك أثناء المفاوضات، حيث طلبت إطلاق سراح الملك مقابل الجلاء عن دمياط. د/سعيد عاشور – الحركة الصليبية– ج٢ص٨٥٨.

٢– يذكر أبو المحاسن أن الملك لويس دفع أربعمائة ألف كاملة في دمياط. النجوم الزاهرة– ج ٦ ص٣٦٩، ولكننا نرى أنه كان يصعب عليه دفع المبلغ بأكمله لنفاد مؤنه وأقواته، وكل ما كان في خزائنه لم يتجاوز مائة وسبعين ألف دينار، ولذلك بقى العديد من أسرى الصلبيين في القاهرة بعد جلاء الملك. رانسيمان – تاريخ الحروب الصليبية– جـ ٣ ص٤٧٥.

وقد حدثت مشكلة كادت أن تؤجل تنفيذ الاتفاق، فقد كتب الملك لويس للأمراء المسلمين المفاوضين نص الأيمان التى يقسمون عليها للالتزام بتنفيذ الصلح، وتتضمن: أنهم إذا لم يراعوا ميثاقهم مع الملك فسيعدون بمثابة الرجل الذى فقد سمعته، والذى عليه بسبب ما اقترفه من ذنب أن يحج إلى مكة وهو عارى الرأس، وإذا خرقوا عهدهم مع الملك فسوف يتلطخون بمثل العار الذى يتلطخ به المسلم الذى يأكل لحم الخنزير، وكانت هذه الأيمان بمشورة قسيس من عكا أكد للملك أنه لايوجد أيمان أقوى وأكثر توثيقاً منها فى الإسلام.

وبعدما أقسم الأمراء المسلمين وضعوا صيغة اليمين الذى أرادوا أن يقسمه الملك، ونصه: "أنه إذا لم يلتزم الملك بشروط معاهدته مع الأمراء سوف تتلطخ سمعته كمسيحى أنكر المسيح وأمه، وأصبح خارجاً عن تبعية حواريه الاثنى عشر وجميع القديسين، وإذا لم يكن الملك وفياً مع الأمراء سوف تتلطخ سمعته كمسيحى، وسيكون مثله مثل من أنكر الرب، وأنكر شريعته، وازدراه، وبصق على الصليب، ووضعه تحت قدميه وداسه".

وعندما قرأ الملك لويس نص اليمين رفض القسم عليه، فثار الأمراء، وأرسلوا له نيقولا أحد رجال الدين بتهديد له، فقال له: "يا صاحب الجلالة، الأمراء حانقون جداً، ففى الوقت الذى أقسموا لك فيه على كل ما طلبته منهم، قمت من جانبك برفض القسم على ما طلبوه منك، وكن متأكداً أنك إذا لم تقسم اليمين سوف يأمرون بقطع رأسك ورؤوس جميع بنى قومك أيضاً"، فرد عليه الملك بأن الأمراء يمكنهم أن يفعلوا الذى يريدونه بالنسبة لهذا الأمر، أما بالنسبة لما يتعلق به شخصياً إنه يؤثر أن يموت مسيحياً جيداً على أن يعيش معادياً للرب- يقصد المسيح- ولأمه.

ووصل إلى سمع الأمراء أن الذى حرض الملك على رفض القسم هو بطريرك بيت المقدس، فقال أحد أمراء المماليك: "سوف أجعل الملك يقسم، أو أننى سوف أرسل رأس البطريرك طائراً إلى حضن جلالته". ثم أخذ البطريرك

وربطه إلى عمود أمام سرادق الملك، وهدده بالقتل، فصرخ إلى الملك قائلاً: " احلف يا صاحب الجلالة بدون خوف، لأنك بالفعل عازم على الوفاء بيمينك، أو لسوف أحمل على نفسى كل ذنب قد يكون موجوداً فيما طلب منك أن تقسمه"، فاضطر الملك للتراجع، وأقسم كما أراد الأمراء، وجرى إقرار المعاهدة[١].

وقد حدثت عدة محاورات بين الملك لويس التاسع وحسام الدين الهذيانى رئيس الوفد الأيوبى المفاوض، فقال للملك: "أنت رجل عاقل، وملك عظيم الرأى، وزين الرأس، وفعلت بنفسك ما لا يفعله المجانين". فقال له الملك لويس: "وكيف ذلك يا حسام الدين؟". فقال: "غررت بنفسك وأموالك وجيوشك وركبت هذا البحر المهلك، وتأتى إلى مثل هذا الإقليم العظيم، الذى فيه هذا العالم الكثير، فإن سلمت من البحر وغرقه، لم تسلم من هذه الطوائف العظيمة. ونحن فى ملتنا إن أى من ركب البحر مرة بعد مرة لا يقبل الحاكم له شهادة". فضحك الملك لويس، ورفع رأسه إلى الأمير حسام الدين، وقال: " وكيف ما يقبل شهادته؟". قال: "فإنه يكون ناقص العقل، ومن كان ناقص العقل لا تقبل شهادته". فاستغرق الملك فى ضحكه، ثم قال: "والله لقد صدقت، وصدق قائل هذا الكلام من قبلك". وتم الاتفاق على تسليم دمياط[٢].

وفي يوم الجمعة السادس من مايو سنة ١٢٥٠م توجه جيوفري قائد الحرس الملكي إلى دمياط، وقام بتسليم الحصن إلى مقدمة الجيش الإسلامي، بينما كان الملك لويس يلتمس المال اللازم لتسديد القسط الأول من الفدية، وهو مائتي ألف دينار، وقد علم الملك أن الداوية اختزنوا مقادير كبيرة من المال في سفينة لهم، فلما طلب منهم الملك المال اللازم رفضوا ما هو مطلوب منهم،

١- جوانفيل- حياة القديس لويس- ص١٣٩، د/ فرج محمد الوصيف- مصر بين حملتى لويس ونابليون (دار الكلمة للنشر سنة ١٩٩٨م) ص٢١.

٢- ابن أيبك- كنز الدرر- ج٧ ص٣٨٤.

ولكنهم تعرضوا للتهديد واستخدام العنف معهم، حتى دفعوا المال اللازم، وتم تسليم المبلغ لقادة المماليك، وفي مساء اليوم ذاته أبحر الملك والبارونات إلى عكا(١).

وقد اتهم بعض المؤرخين الأوربيين المسلمين بنقض الهدنة عندما قتلوا العديد من الجنود الصليبيين الذين بقوا بدمياط، كما أجهزوا على الجرحى منهم(٢).

ولم نجد في المصادر الإسلامية إشارة لهذا الأمر إلا ما ذكره أبو المحاسن من دخول العساكر دمياط، ونهبوا وقتلوا من بقى من الفرنج(٣).

ورغم أننا لا نوافق على نقض الصلح من أي جانب، وخاصة أنه لم يسبق للمسلمين أن نقضوا شروطهم مع الصليبيين، في الوقت الذي نقض فيه الصليبيون عهودهم عشرات المرات، وهو ما جعل المؤرخون الأوربيون يحرصون على إبراز هذه الحادثة والتشهير بها، ولكننا نرد عليهم بأن الذين قاموا بذلك بعض أهل دمياط انتقاماً منهم لما حل بمدينتهم على يد الصليبيين، وبعض عامة الجند مخالفين أوامر قادتهم الذين أنكروا عليهم ما فعلوه، بل وعاقبوهم بالضرب، وأخرجوهم من دمياط(٤).

وهذا يعني أن قادة المسلمين لم ينقضوا الهدنة، ولم يرضوا بنقضها،

١- د/ جوزيف نسيم يوسف- العدوان الصليبى- ص٨٧، د/فايد حماد عاشور- الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين والمغول فى العصر المملوكى (دار جروس برس بطرابلس لبنان سنة ١٩٩٥م) ص٦٧.

٢- بردج – تاريخ ا لحروب الصليبية – ترجمة أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي (دمشق ١٩٨٥م) ص٢١٧.

٣- النجوم الزاهرة – ج ٦ ص٣٦٩.

٤- أبو المحاسن – النجوم الزاهرة- ج ٦ ص٣٦٩.

وعاقبوا من قام بذلك، وهو ما لم يفعله قادة الصليبيين قبل ذلك، بل إن الأمراء من الأيوبيين والمماليك رفضوا الرأى الذى أشار به الأمير حسام الدين محمد الهذيانى بعد تسلم دمياط وقبل رحيل الملك لويس، فقد أشار بقتل الملك وجميع من معه، لأن طول إقامتهم بالأراضى المصرية أطلعتهم على كثير من عورات البلاد، وينبغى تأمين البلاد المصرية بقتلهم جميعاً، وسنكون لأربعين سنة مقبلة على الأقل بدون مخاطر، إلا أن الأمراء رفضوا هذا الرأى، حتى لايظهر أهل مصر ورجال الدولة كأنهم سفاكون للدماء، غادرون فى نظر القريب والبعيد، وأكدوا وجوب المحافظة على العهود والمواثيق التى تمت بين الطرفين، وتم إطلاق سراحهم، بل ذكر جوانفيل وهو كان ضمن هؤلاء الأسرى، وذكر هذه المناقشات التى دارت بين الأمراء، بأن المسلمين أصروا أنهم لن يدعونا نغادر دمياط إلا بعد تناول الطعام، وقالوا: "سوف يلحق بنا العار وبأمرائنا إذا تركنا أسرانا جياعاً"، وسمحوا لهم بعد تناول الطعام بالرحيل إلى عكا[١].

على أية حال انتهز الملك لويس ما حدث فى دمياط من بعض العامة، وأرسل سفارة من عكا إلى القاهرة للاحتجاج على نقض الهدنة المعقودة بينه وبين المماليك، في الوقت الذي تحسن فيه موقف الملك لويس في الشام بسبب حدوث انشقاق في الجبهة الإسلامية بين المماليك في مصر والأيوبيين في الشام، ولذلك لم يكن من مصلحة المماليك أن يدخلوا في عداء مع الملك لويس والصليبيين قبل تأمين ظهرهم من الأيوبيين في الشام، فحرص عز الدين أيبك الذى أصبح سلطان المماليك– بعد قيام دولتهم فى مصر– على استرضاء الملك لويس، والإفراج عن دفعات من باقي أسرى الصليبيين بلغت نحواً من ثلاثة آلاف أسير، ولا أدل على حرص أيبك على استرضاء لويس التاسع في تلك الفترة بالذات من

١– جوانفيل– حياة القديس لويس– ص١٤١.

إنه أرسل إليه هدية عبارة عن فيل وحمار وحشي[١].

محاولة التحالف بين المماليك ولويس التاسع سنة ١٢٥٢م

بعد قيام المماليك بقتل تورانشاه في مايو سنة ١٢٥٠م انتهي الحكم الأيوبي في مصر، واختار المماليك شجرة الدر سلطانة عليهم وعلى مصر، ثم تزوجت الأمير عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر، وتنازلت له عن الحكم، وتم إعلانه سلطاناً في يوليو سنة ١٢٥٠م، ولم يرض الأيوبيون في الشام عما حدث في مصر من انقلاب أدى إلى نقل الحكم إلى المماليك في مصر، الذين لن يقنعوا بحكم مصر، وإنما سيعملون على ضم الشام أيضاً، لذلك أخذ الأيوبيون في الشام يوحدون جهودهم لمواجهة خطر المماليك، وقد ساند الأيوبيون في الشام بعض طوائف المماليك الذين امتنعوا عن الدخول في طاعة شجرة الدر، وسلموا دمشق للناصر يوسف صاحب حلب، واستولى المغيث عمر الأيوبي على الكرك والشوبك، وبذلك صار البيت الأيوبي قوة كبيرة في الشام، وحاولوا السيطرة على مصر، ومن أجل تحقيق هذا الهدف أرسل الناصر يوسف رسالة ودية إلى الملك لويس التاسع فى عكا، وعرض عليه عروضاً سخية أهمها: أن يتنازل الناصر يوسف للملك لويس عن مدينة بيت المقدس، مقابل تحالفهما ضد دولة المماليك البحرية فى مصر.

غير أن الملك لويس التاسع لم يشأ أن يلتزم بشيء رغم ما للتحالف مع دمشق من أهمية للصليبيين، غير إنه كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين لا زالوا في مصر، وهو ما يقرب من اثنى عشر ألف أسير[٢].

ورداً على هذه الرسالة أرسل الملك لويس سفارة إلى دمشق برئاسة أيف

١- رانسيمان - تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص٤٧٦.

٢- رانسيمان - تاريخ الحروب الصليبية - جـ ٣ ص٤٧٥.

البريتونى، وهو راهب عارف باللغة العربية، أبلغت الناصر يوسف رد الملك لويس ويتضمن: أن الملك لويس لايستطيع الدخول مع الملك الناصر يوسف فى حلف ضد دولة المماليك وأمرائها بالقاهرة، أو أن يقبل وعداً من الملك الناصر يوسف بنزوله عن بيت المقدس للصليبيين، إلا إذا تأكد أولاً بأن السلطان المملوكى أيبك وأمراء المماليك عازمون على عدم احترام هدنة دمياط، وممتنعون عن اطلاق سراح الأسرى الصليبيين المبعثرين بأنحاء البلاد المصرية، واختتم رسالته بقوله: بأن الملك لويس على وشك إنفاذ بعثة صليبية من عكا إلى القاهرة، لشرح رغباته فى هذا الصدد للسلطان أيبك، فإذا ثبت لدى هؤلاء المبعوثين أن الدولة المملوكية لاتستجيب لهذه الرغبات، فإنه لن يتردد فى الدخول مع الملك الناصر يوسف فى الحلف المطلوب[١].

وكان هذا الخلاف من حسن حظ الصليبيين ولويس التاسع الذي سعى للاستفادة من هذا الانشقاق الذي حدث في صفوف المسلمين، فأرسل وفداً صليبياً كبيراً إلى القاهرة برئاسة حنا فالنسيين كونت حيفا، وكان بحكم موقع إمارته من العارفين بشدة العداء بين المماليك والأيوبيين، وبعد وصوله اجتمع بالمندوبين عن السلطنة المملوكية فى قلعة الجبل بالقاهرة، وتحدث إليهم بمنطق القوى الذى جاء ليفرض شروطه، فبدأ حديثه بلهجة حادة محتجاً على ما قام به بعض أهل دمياط من إتلاف للآلات الحربية والمؤن الصليبية قبل أن يرسل الملك لويس من يتسلمها حسب الهدنة، ثم تحول من الاحتجاج إلى الإنذار الشديد بمعاداة المماليك والتلويح بالتحالف مع الأيوبيين، ولكنه كان سياسياً محنكاً إذ انتقل بعد ذلك إلى لهجة لينة، فقال إن ما فات مات على أية حال،

١- جوانفيل – حياة القديس لويس – ص١٧٢، محمود شاكر- التاريخ الإسلامى- العهد المملوكى (المكتب الإسلامى سنة ٢٠٠٠م) ج٧ ص٢٤.

بشرط أن يطلق السلطان أيبك سراح الفرسان الصليبيين، وهم الذين لا يزالون بالعاصمة نفسها ولم يتفرقوا وقتئذ فى عامة البلاد المصرية، ثم اختتم حنا حديثه بقوله: إنه إذا لم يتم إطلاق سراح هؤلاء الفرسان الصليبيين على وجه السرعة فسوف يقوم الملك لويس بالتحالف مع العدو اللدود للسلطنة المملوكية، وهو الملك الناصر يوسف كائنة ما تكون النتائج(١).

وأمام هذا التهديد استجاب السلطان أيبك، وأمر بإطلاق سراح عدد كبير من الفرسان الصليبيين بلغ مجموعهم ثمانمائة، على رأسهم وليام شاتونيف مقدم الاسبتارية، وخمسة وعشرون من فرسان هذه الطائفة، وخمسة وعشرون من طائفة فرسان الداوية، وعشرة من طائفة فرسان التيوتون، ومائة من الفرسان الملكيين، وأربعون من الفرسان الشامبانيين، وستمائة من عامة الأسرى، وهذا يدل على عدم صدق الروايات الصليبية التى ذكرت أن المسلمين أبادوا الأسرى الصليبيين بعد هزيمتهم فى موقعة فارسكور واستسلامهم، كما تسلم المندوبين الصليبيين رفات كونت والتر برين بعد أن أسر سنة ١٢٤٤م، ومات فى أسره ودفن بالقاهرة قبل مجئ حملة لويس التاسع (٢).

غير أن الملك لويس لم يقنع بإطلاق سراح هذه الأعداد الكبيرة من الفرسان الصليبيين، على الرغم من أن معظم هؤلاء الفرسان لم يلبثوا أن دخلوا فى خدمته الملكية، وأسهموا فى تنمية قوته الحربية، وأراد أن ينتهز هذه الفرصة لاستغلال العداء بين المماليك والأيوبيين، ولا يدع هذه الفرصة تمر أو تفلت من يده، ولذا استدعى المبعوثين المصريين الذين قدموا من عند السلطان أيبك مع حنا فالنسيين إلى عكا فى أكتوبر سنة ١٢٥٠م، وخاطبهم بلغة جافة على غير

١- د/ محمد مصطفى زيادة- حملة لويس التاسع على مصر- ص٢٤٧.

٢- جوانفيل - حياة القديس لويس - ص١٧٢.

عادته التى اشتهر بها، وطلب عودة المزيد من الأسرى الصليبيين، بالإضافة إلى التنازل عن المبلغ المؤجل من الفدية المقررة وهو مائتى ألف ليرة ذهبية، وذلك قبل الموافقة على أى تحالف صليبى مملوكى ضد الملك الناصر يوسف الأيوبى.

وعاد مبعوثى السلطان أيبك ومعهم حنا كونت يافا مرة أخرى إلى القاهرة محملين بهذه المطالب الكثيرة، وظل هذا الكونت بالقاهرة مدة طويلة، نظراً لما طرأ على الموقف السياسى بين المماليك والأيوبيين، فقد قرر الناصر يوسف غزو مصر، ومحاربة المماليك فى عقر دارهم، وخرج من دمشق بجيش كبير فى منتصف رمضان سنة٦٤٨هـ (ديسمبر سنة ١٢٥٠م)، ولكنه انهزم عند قرية العباسة– بالقرب من الزقازيق– وولوا الأدبار إلى الشام مرة أخرى[١].

وكانت هذه الأحداث وسيلة ضغط على المماليك رغم انتصارهم، لأن الأيوبيين سيظلون قوة ينبغى أن تحاط بجميع أنواع اليقظة، ولذا أرسل السلطان أيبك مبعوثيه إلى الملك لويس مرة أخرى مع سفيره يوحنا فالنسيين مزودين بالموافقة على جميع المطالب التى أصر الملك لويس عليها، وعقدت معاهدة بين الطرفين فى ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ (مايو سنة ١٢٥٢م)، نصت على ما يلى:

أولاً– أن يتعهد أمراء مصر بمراعاة العادات والطقوس المسيحية فى البلاد التى تحت حكمهم.

ثانياً– إطلاق سراح الفرسان الذين وقعوا أسري في موقعة غزة الثانية سنة ١٢٤٤م، وكذلك الإفراج عن نحو ثلاثة آلاف من الأسري المستجدين، وذلك مقابل إطلاق سراح ثلاثمائة من الأسري المسلمين[٢].

ثالثاً– أن يتعهد الأمراء المماليك بإعادة رؤوس الفرنج المعلقة حول أسوار

١– النويري– نهاية الأرب في فنون الأدب (الهيئة المصرية العامة للكتاب) جـ ٢٩ ص٣٧٨.
٢– د/ سعيد عاشور – الحركة الصليبية – ج٢ص ٨٦٣.

القاهرة، وكذلك جميع الأطفال المسيحيين الذين قبضوا عليهم منذ واقعة غزة[١].

رابعاً: أن يتنازل الأمراء عن النصف المتبقى من الفدية الذى يدين به لهم الملك الفرنسى.

خامساً: أن يتعهد الأمراء بإعادة بيت المقدس إلى الفرنج، وكذلك جميع البلاد التى يمتلكونها فى الأراضى المقدسة غربى نهر الأردن باستثناء أربع مناطق[٢].

سادساً: يتعهد الملك لويس والصليبيون بالقيام بحملة مشتركة مع أمراء مصر ضد الناصر يوسف الأيوبى، وعقد تحالف مملوكى صليبى ضده، على أن تكون البلاد والغنائم التى يستولون عليها مناصفة بينهما[٣].

سابعاً: أن تظل نصوص هذه المعاهدة نافذة المفعول لمدة خمس عشرة سنة[٤].

وقد أقسم كل من الملك لويس وكبار رجال حاشيته من ناحية، ورسل السلطان أيبك من ناحية أخرى، باحترام المعاهدة وعدم الإخلال بها، وتحمس الملك لويس لهذا التحالف مع المماليك، وكانت الخطة الحربية تتضمن زحف الملك من ناحية قيسارية إلى يافا لاحتلالها، على حين يزحف السلطان أيبك إلى غزة، بحيث يتم اتصال الزحفين المملوكى الصليبى عند موضع متفق عليه بين يافا وغزة، وجهز الملك لويس حملة عسكرية تتكون من ألف وأربعمائة مقاتل،

١- جوانفيل – حياة القديس لويس- ص١٧٣.

٢- هذه المناطق الأربع التى تحتفظ بها مصر هى غزة وألداروم ونابلس وحبرون، بينما تعيد إلى الصليبيين بيت لحم وصهيون والجليل. د/جوزيف نسيم يوسف- العدوان الصليبى- ص١٧٨.

٣- رانسيمان – تاريخ الحروب الصليبية- ج٣ص ٤٧٦.

٤- د/جوزيف نسيم يوسف- العدوان الصليبى- ص١٧٩.

وسيطر على يافا، وعمل على تقوية حصونها، ووقف بها منتظراً تقدم جيش المماليك[١].

إلا أن هناك عدة عقبات حالت دون إتمام تنفيذ هذا الاتفاق بين الملك لويس والمماليك **أولها**: رفض طائفة الداوية الصليبية قطع علاقتهم بدمشق، وأعلنوا عدم موافقتهم علي سياسة الملك لويس الخاصة بالتحالف مع المماليك، بل وقاموا بمحادثات مع الملك الناصر يوسف والاتفاق معه على اقتسام بعض الأراضى، دون استئذان الملك لويس في ذلك، ورغم أن الملك قام بتأنيبهم علنا، وطلب من مقدم الداوية إلغاء ما تم الاتفاق عليه مع الملك الناصر يوسف الأيوبى، وفرض عليهم عقوبة قاسية لمخالفة أمره، تضمنت نفى مندوب الداوية الذى عقد الاتفاق مع الناصر يوسف، وهو الراهب هوجو من البلاد الصليبية بالشرق، إلا إنهم استمروا في الاتصال بالناصر يوسف بطرق أخري بعيداً عن أعين الملك لويس[٢].

والعقبة الثانية وضعها الناصر يوسف عندما أرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف رجل عسكروا عند تل العجول قرب غزة، ليحولوا دون اجتماع المماليك والصليبيين، وتوقف الجيش المصرى فى الصالحية، وكل منهما يترقب الآخر فترة غير قصيرة من الزمن، وبالفعل ثبت كل طرف في موضعه مدة سنة، لم يشأ خلالها أي طرف أن يثير المعركة [٣].

والعقبة الثالثة التي قضت على الاتفاق نهائياً هي تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله عندما بلغه نبأ النزاع بين المماليك والأيوبيين، ووصوله إلى تلك

١- د/ محمد مصطفى زيادة- حملة لويس التاسع على مصر- ص٢٥١.

٢- جوانفيل- حياة القديس لويس- ص١٨٩، د/سعيد عاشور – الحركة الصليبية – ج٢ص ٨٦٧.

٣- المقريزي – السلوك- جـ ١ ص٣٨١.

الدرجة من الخطورة، فأرسل الشيخ نجم الدين البادرائي للتوسط بين المسلمين في مصر والشام، ومنع أي صدام بينهم، وقد رضى الطرفان بهذه الوساطة بعد أن أدرك الناصر يوسف أنه ليس من السهل تنفيذ أطماعه فى مصر بعد هزيمته فى العباسة، وأدرك هو وغيره من ملوك بنى أيوب أن محاولة الاستيلاء على مصر باتت مغامرة غير مضمونة النتائج، وأن الصلح هو خير وسيلة للمحافظة على ولاياتهم فى الشام، أما أمراء المماليك فقد من ملوا من طول القتال، كما وجدوا أن استمرارهم فى الاتصال بالصليبيين والتحالف معهم لن يؤدى فى النهاية إلا إلى إثارة الشعور الدينى الإسلامى ضدهم، ويبدو أنهم قد خدعوا أيضاً فى قوة الملك لويس الحربية، فآثروا قبول وساطة الخليفة ليتفرغوا لمشاكلهم الداخلية فى مصر.

وبفضل تلك الوساطة تم الصلح بين المماليك والأيوبيين في أوخر سنة ٦٥٠هـ/ أول إبريل سنة ١٢٥٣م على أن يكون للمماليك بمصر إلى نهر الأردن، وللملك الناصر بقية بلاد الشام، وأن يدخل تحت حكم المماليك غزة والقدس ونابلس والساحل كله[١].

وقد ترتب على هذا الصلح إلغاء الاتفاق بين المماليك والصليبيين، وضياع الفرصة التي بدت سانحة أمام الملك لويس للسيطرة على بيت المقدس، كما قام الجيش الأيوبي أثناء عودته من غزة راجعاً إلى دمشق بالهجوم على المدن الصليبية مثل يافا وصيدا، وقتلوا كثيرا من الصليبيين بها، وقد رد الملك لويس على هذا الهجوم بإرسال قوة صليبية لمهاجمة بانياس ونابلس، رغم تبعية الأخيرة للمماليك في مصر لا للأيوبيين في دمشق، ولكنه كان حانقاً على المماليك لأنهم تخلوا عنه، ولم يتموا اتفاقهم معه، لكن هجماته لم تحرز شيئا من

١- ابن كثير – البداية والنهاية (دار الفكر العربي ١٩٣٣م) ج ١٣ ص١٨٤، العيني – عقد الجمان – ج ١ ص٦٩.

النجاح.

وبذلك انتهى الحلف المملوكى الصليبى إلى لاشئ ما عدا إطلاق سراح أعداد كبيرة من الأسرى الصليبيين، والنزول عن النصف المؤجل من الفدية المقررة، وسماح السلطان أيبك لبعثة صليبية جديدة بالحضور مرة أخرى إلى البلاد المصرية، للبحث عمن عساه يكون باقياً من الأسرى الصليبيين بها، ثم غادر لويس التاسع الشام عائداً إلى بلاده في إبريل سنة ١٢٥٤م[١].

وهكذا انتهت جميع الآمال والمآرب التى كان الملك لويس التاسع يطمع فى تحقيقها فى مصر والشام، والتى بدأت بحملة صليبية كبيرة، ودارت خلالها مفاوضات سياسية طويلة مع حكام مصر الأيوبيين والمماليك، ويكفينا ما ذكره رانسيمان للحكم على هذه الحملة حيث قال: " إن حملة القديس لويس الصليبية ورطت الشرق المسيحى فى كارثة عسكرية مروعة، فعلى الرغم من إقامة الملك لويس فى عكا لمدة أربع سنوات، أسهمت كثيراً فى إصلاح الضرر، فإن ما حدث من خسارة فى القوة البشرية لم يجر مطلقاً استردادها، ومع أن الملك لويس فاق جميع المحاربين الصليبيين فيما حازه من أنبل الصفات والأخلاق، فلعله كان خيراً للشرق الفرنجى لو أنه لم يغادر فرنسا، لأن هزيمته كانت أعمق أثراً من أية هزيمة صليبية سابقة"[٢].

ورغم هذا ظل الملك لويس يفكر فى القيام بحملة صليبية جديدة على الشرق، وعندما شاع فى مصر أنه يريد العودة إلى دمياط وغزوها، قال الشاعر جمال الدين بن مطروح:

قـــل للفرنســـيس إذا جئتـــه ** مقـــال صـــدق مـــن قـــؤول فصـــيح

١- جوانفيل- حياة القديس لويس- ص٢٢٢.

٢- رانسيمان – تاريخ الحروب الصليبية- ج٣ ص٤٨٤.

آجـرك الله علـى مـا جـرى ... مـن قتـل عبـاد يسـوع المسـيح
أتيـت مصـر تبتغـي ملكهـا ... تحسـب أنّ الزّمـر يـا طّبـل ريـح
فسـاقك الحـينُ إلـى أدهـم ... ضـاقت بـه عـن ناظريـك الفسـيح
وكـلّ أصـحابك أودعـتهم ... بحسـن تـدبيرك بطـن الضّـريح
خمسـين ألفـاً لا تـرى مـنهم ... إلا قتـيلاً أو أسـيراً جـريح
وفقـك الله لأمثالهـا ... لعـل عيسـى مـنكم يسـتريح
وقـل لهـم إن أضـمروا عـودةً ... لأخـذ الثّـأر أو لقصـدٍ صـحيح
دار ابـن لُقمـان علـى حالهـا ... والقيـد بـاقٍ والطُّواشـي صـبيح[1]

١ – ابن أيبك الصفدى– الوافى بالوفيات (دار إحياء التراث العربى سنة ٢٠٠٠م) ج١٠ ص١٩٧، ابن الوردى– تاريخ ابن الوردى (دار الكتب العلمية سنة ١٩٩٦م) ج٢ ص١٧٨، السيوطى– حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٧م) ج٢ ص٣٦.

المصادر والمراجع

أحمد الشامى (دكتور)

١- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (دار النهضة العربية سنة ١٩٨٥م).

ابن أيبك: أبوبكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري

٢- كنز الدرر وجامع الغرر _ القاهرة ١٩٧٢م.

ابن أيبك: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ت٧٦٤هـ

٣- الوافى بالوفيات – دار إحياء التراث العربى سنة ٢٠٠٠م.

باركر (أرنست).

٤- الحروب الصليبية – ترجمة الدكتور السيد الباز العريني – دار النهضة العربية سنة ١٩٦٧م.

بردج (أنتونى)

٥- تاريخ الحروب الصليبية – ترجمة أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي – دمشق ١٩٨٥م.

جوانفيل

٦- حياة القديس لويس– ترجمة د. سهيل زكار ضمن الموسوعة الشامية (دمشق سنة ١٩٩٩م).

جوزيف نسيم يوسف (دكتور)

٧- العدوان الصليبى على بلاد الشام – دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧١م.

الحريري : أحمد بن علي

٨- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين علي بلاد المسلمين _ دمشق ١٩٨١م.

حياة ناصر الحجى (دكتورة)

٩- السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع- مكتبة النهضة العربية سنة ١٩٨٣م.

رانسيمان (ستيفن)

١٠- تاريخ الحروب الصليبية – الجزء الأول – تر جمة نور الدين خليل – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م، والجزء الثاني والثالث ترجمة الدكتور السيد الباز العريني – بيروت ١٩٨٢.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

١١- الحركة الصليبية – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤م.

السيوطى: جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ

١٢- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة – دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٧م.

أبو شامة: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي. –ت٦٦٥هـ

١٣- الروضتين في أخبار الدولتين – دار الجيل ببيروت.

عبدالرحمن زكى (دكتور)

١٤- الجيش المصرى فى العصر الإسلامى (مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٠م).

عبدالغنى زهرة (دكتور)

١٥- الهدن والمفاسخات بين المسلمين والصليبيين- دراسة فى كيفية تحقيق النصر السياسى (مكتبة الرشد بالرياض سنة ٢٠٠٦م)

على محمد الصلابى (دكتور)

١٦- الأيوبيون بعد صلاح الدين.

ابن العماد الحنبلي : عبد الحي بن أحمد – ت ١٠٨٩هـ.

١٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب – دار الفكر ١٩٧٩م.

العيني: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى الحنفى

١٨- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان- تحقيق الدكتور محمد أمين- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

فايد حماد عاشور (دكتور)

١٩- الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين والمغول فى العصر المملوكى-دار جروس برس بطرابلس لبنان سنة١٩٩٥م.

أبو الفدا: الملك المؤيد إسماعيل بن على بن محمود ت ٧٣٢هـ

٢٠- المختصر في أخبار البشر – القاهرة ١٣٣٥هـ.

فرج محمد الوصيف (دكتور)

٢١- مصر بين حملتى لويس ونابليون – دار الكلمة للنشر سنة ١٩٩٨م.

ابن كثير : أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي ت ٧٧٤هـ

٢٢- البداية والنهاية – دار الفكر العربي ١٩٣٣م.

أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغري بردي ت ٨٧٤هـ

٢٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب.

محمد العروسى المطوى

٢٤- الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب – دار الغرب الإسلامى سنة ١٩٨٢م.

محمد مصطفى زيادة (دكتور)

٢٥- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب سنة ١٩٦١م)

محمود سعيد عمران (دكتور).

٢٦- تاريخ الحروب الصليبية – الإسكندرية ١٩٩٥م.

محمود شاكر

٢٧- التاريخ الإسلامى- العهد المملوكى (المكتب الإسلامى سنة ٢٠٠٠م).

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي – ٨٤٥هـ

٢٨- السلوك لمعرفة دول الملوك – لجنة التأليف والترجمة والنشر.

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب – ت ٧٣٢هـ

٢٩- نهاية الأرب في فنون الأدب – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم – ت ٦٩٧هـ

٣٠- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب – نشر وتحقيق د.جمال الدين الشيال، د. حسنين محمد ربيع – القاهرة ١٩٨٦م.

ابن الوردى: زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٤٩هـ

٣١- تاريخ ابن الوردى (دار الكتب العلمية سنة ١٩٩٦م).

٣٢- **كرد:** محمد علي، **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م .